

التمايز بين الفكر الإسلامى والفلسفة الإسلامية

أ.د. محمد إبراهيم الفيومى *

نود أن نشير ، بادئ ذى بدء ، إلى أن المعرفة الإسلامية تشتمل على مستويات ثلاث ، يحدد المستوى الأعلى فيها نوع المعرفة : فهناك : الدين الإسلامى ، والفكر الإسلامى ، وفلسفة الإسلاميين .

هذا التصنيف نراه أساسياً - فى نظرنا - لتحديد فلسفة الإسلاميين وقضاياها ، من الدين الإلهى . وفكره ، أما عن الدين الإلهى : فهو ما أوحى به الله إلى الرسول ﷺ ،

* أستاذ الفلسفة والعقيدة بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر .
والأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية السابق بالقاهرة .

ولما كان الدين الإسلامى وحياً إلهياً ، لا تغيير فى ، ولا تبديل ، كان أعلى من كل مستويات الفكر الإنسانى ، والمعيار الأساسى لتحديد مسار الفكر الإسلامى وفلسفته ، وأنه ليس من قبيل الفكر العقلى ، أو نتيجة جهد عقلى قام به إنسان مفكر ، إنما يعتمد فى مصدره على الوحي الإلهى ، وهو غير العقل ، وهذا أهم ما يميز الدين الإسلامى عن الفكر الإنسانى وفلسفته .

أما الفكر الإسلامى ، فإنه نشأ نشأة طبيعية منذ حياة الرسول ونزول الوحي عليه ، فلقد حفل بالرأى فيما دون كتاب الله وسنة رسوله ، فضلاً عن دعوة القرآن ذاته للمسلمين إلى تدبره ، قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) ثم هناك ضرورات أخرى حدثت وساهمت فى تنمية الفكر الإسلامى وانقسامه إلى مدارس فى السياسة والفكر .

فمجال السياسة برز فيه سؤال وجه الفكر السياسى فى الإسلامى وكان السؤال : من هو الخليفة ؟ ومجال الفكر الإسلامى برز فيه سؤال آخر هو : كيف أفهم مراد الله ؟ وهل لكى أفهم مراد الله لابد من العقل ؟ على أى حال وجدنا - والواقع يؤيدنا - من أخذ بوجهة النظر التى تحترم العقل فى سبيل فهم النص المقدس ، أى أن العقل لابد منه لفهم الوحي الإلهى ، كالمعتزلة وأهل السنة والفقهاء وذلك على خلاف بينهم فى تقدير قيمة سلطة العقل ، هذا الاتجاه يسمى : (العقلى النقلى) .

وهناك اتجاه على طرفى نقيض من سابقه ألغى العقل وأخذ بفكرة الإمام المعصوم ، وهذا الاتجاه يسمى «اللاعقلى» كالشيعية والصفوية وانقسم إلى تيارات .

أما التيار الذى أخذ بالعقل لفهم المعنى الحقيقى للقرآن فقد حاول أن يقدم وسائل

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

منهجية يستعين بها العقل على فهم النص الإلهي ويحكم بها علاقته بالقرآن .

* فظهر علم أصول الدين ليحدد علاقة العقل بالعقيدة .

* وعلم أصول الفقه ليحدد علاقة العمل بالشريعة^(١) .

فاستطاع هذا الاتجاه أن يأخذ بالعقل ويرد له اعتباره وحددت هذه المناهج نطاقه وذلك مما عرف في الجو الإسلامي بقضية «العقل والنقل» أو قضية الرأي في الإسلام .

من هنا بدأ الصراع حول فهم الحقيقة الدينية دينياً وفكرياً وسياسياً :

- حقيقة دينية كما ترى في مراد الله ، وكما عاشها الرسول وعبر عنها الوحي الإلهي في إطار كلي .

- حقيقة دينية كما ترى في مراد البشر وعاشتها الفرق الإسلامية .

ومن الصراع الدائر بينهما : تميز الفكر الإسلامي بالحركة الفعالة الإيجابية . وتميز أغلبه بعدم خروجه عن دائرة الدين الإسلامي ، وجهة ، وغاية ، وموضوعاً ، ومنهجاً ، فهو متلزم به عقيدة ، وتشريعاً ، وأخلاقاً ، وظل الفكر الإسلامي يرمى هذه المقررات ويلتزم بها .

وقد أدرك العلماء من مفكرى الإسلام مغزى الدعوة إلى الرأي فقاموا بجهود مشتركة إلى بناء أصول البحث والنظر من أجل فهم الدين ، فأرسوا القواعد الفكرية لفهم النص الديني في الإسلام ركزت أصولها بالطرائق النقدية في العلم والمعرفة ، فرأينا تنوعاً في مصادر التشريع الإسلامي بجانب الوحي الإلهي كالإجماع ، القياس ، الاستصحاب ، شرع من قبلنا ، الاستحسان ، المصالح المرسلة ، سد الذرائع ، مذهب

(١) انظر كتابنا: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق .

الصحابي ، البراءة الأصلية في العصر النبوي ، فضلاً عن قواعد أخرى : مثل : الأمور بمقاصدها ، المشقة تجلب التيسير ... إلخ .

وكنا نرى من خلال اختلاف علماء أصول الفقه الإسلامي حول تلك القواعد : نقاشاً حراً ومثمراً للغاية يتيح للعقل أن يتفهم مكانه من النص الإلهي وعلاقته به ، ودون أن نرى مقالة تكفر هذا أو تلعن ذاك أو أن تتهم بدعة . فالمدارس الفكرية في الإسلام ومحاولتها فهم الرأي وتقعيده ليست بدعة ، وليست لاهوتية صرفة ، إنما كان هدفها خلق مجتمع يحكمه طابع التوافق بينه وبين القانون الإلهي العقدي ، والتشريعي ، وآراؤها تضيف إسهاماً آخر للفهم التاريخي للأشياء .

وكان يحكم اختلافهم في الرأي عدة اعتبارات منها :

* أن العالم ليس ثابتاً . إنه في كل مظهره في تبدل ونمو .

* احترام اختلاف الأماكن ، فلا تسوى المدينة بالعراق ، فالأولى عند مالك يحتج بعملها . والشافعي قد كان له بالمشرق ما كان من فقه ثم أحكمه بمصر فصار له مذهبان : جديد وقديم بالعراق . تقديراً لسير الحياة المتغيرة وتدرجها المتطور . فحسبهم العميق بأهمية الزمن أداهم إلى التأكيد على حقيقة النمو والتطور .

بهذه القواعد دخل على الدين تيار إنساني ، ليرفع قيمة الإنسان الخلقية والفكرية وأضاف وسائل علمية تعين العقل على الاجتهاد ، وتنقد التقليد في الدين : ومن خلال هذه المصادر المتنوعة ظهر أن كل ما أوحى الله به لا يمكن أن يكون مناقضاً للعقل ، وفي النهاية : كانت هذه القواعد بالنسبة للعقل مولداً جديداً له فقربت بينه وبين الدين وحفظت عليه اعتداله من أن تستهويه نظرة خاصة أو فكرة شخصية ، هذا هو الرأي في الإسلام .

أما المذهب المنسوب إلى شخص من الأشخاص والذي يتجمد بجموده ويتحدد بحدود فكر ثم يقيم أصحابه في داخله مدرسة ليبنوا أسواراً من الجمود حولهم ليعتزلوا داخله فيفقدوا حسهم الاجتماعي أخص خصائص النمو الحركي ليتوافق مع دوائر الفكر الأخرى لبيان الرأي في الإسلام .

إن المذهبية في الإسلام جمود ، تعوق من مسيرة العقل وتجعل فهم النص بعيداً عن ساحة الإنسان ومشاكله ، كذلك هي مرهقة للإنسان من حيث طبيعته البشرية حينما يتحدد مستقبله داخل مذهب يمثل فهماً معيناً للإسلام في زمن معين لبيئة معينة .

إن الشافعي - قبل أن يجعله الأتباع شافعيًا - كان يعايش علماء عصره فممنهم من هو مثله أو أكفأ منه أو أدنى منه ، لم يكن ذلك بالنسبة له سوى حلقات متتابعة يكمل بعضها بعضاً في محراب الإسلام ، وكان الحوار القائم بينهم دافعاً للتفاهم ولم تكن حواجز الجمود قد قامت بعد ، ويبدو أن الإمعان في تحديد المذاهب بعضها من بعض كان إمعاناً مزيئاً بالفكر الإسلامي لأن التحديد يشير من ورائه إلى كميات هائلة من التعصب شغلت العقل عن جوهر الدين الإسلامي بتحليل صيغ الفقهاء اللفظية .

الإسلام وحرية الفكر :

من الأمور المعروفة في الإسلام أنه ليس به محاكم تفتيش تصادر حرية الفكر أو تفرض رقابة على الآراء والمعتقدات ، وليس في الإسلام حكماً استبدادياً يمنع الفكر من البحث الحر لمعرفة حقيقة جديدة أو كشف نور جديد ، فهولا يقف حائلاً دون الفعل المتحرر الساعي في عالم المجهول .

ليس في الإسلام مثل هذه السلطة سواء كانت كنسية أم طبقة دينية «اكليريكية» معصومة تمثل المركز الوحيد لتفسير الحقيقة السماوية وتلزم الإنسان لأن يخضع لها أو

تفرض عليه فكراً معيناً باسم القوة الروحية لتنظيم المجتمع : لو أخذنا الخلافة الإسلامية كنظرية تطبيقية حتى أقولها مثلاً لوجدنا أنها اعتمدت على المبايعات ولم يدع الخليفة أنه استمد شرعيته من مصدر إلهي ، كذلك ليس هناك أسرة دينية لها شكل مقدس أو طبقة دينية لها امتياز السيطرة على الدين تفسيراً أو شرحاً أو نسخاً .

٢- السمات العامة للفكر الإسلامي :

كذلك من السمات العامة للفكر الإسلامي : أنه محدد القضايا من حيث الجدل الإنساني ، أي ليست قضاياها كلها قابلة للجدل العقلي - وإن وجد من المسلمين من تعدى هذه القضايا وخاض فيها - وغالب هذه القضايا يدخل فيما تطلق عليه الفلسفة : «مشكلات ما بعد الطبيعة» على أساس أن الوحي الإلهي تكفل بشرحها وبيانها وكان هذا الموضوع طبيعياً لولا تثبيت بعض المتفلسفة الإسلاميين بتقليد فلاسفة اليونان .

من هنا كان الفكر الإسلامي فكراً موجهاً ، وتحددت علاقته بقضايا الجدل العقلي .

لذلك أبرز القرآن خطوطه العامة لمجالات الجدل توجيهها منه للعقل حتى يتفرغ للجدل المفيد . وهذه المجالات هي :

أ- الوحي ومشكلات ما بعد الطبيعة :

من أجل أن يتفرغ الإنسان لمشكلاته الدنيوية، فقد تكفل الوحي بمجال المشكلات العميقة التي عرفت في الفلسفة تحت اسم : مشكلات ما بعد الطبيعة ، لأنها فوق النطاق العقلي . روى ابن حجر عن أبي المظفر أنه قال في القضاء والقدر : «سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة ، دون محض القياس ، والعقل ، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل ، وتاه في مجال الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ، ولا

يطمئن به القلب ، لأن القدر سر من أسرار الله تعالى : اختص به العليم الحكيم الخبير ، وضرب دونه الأستار ، وحجبه عن عيون الخلق ومعارفهم مما علمه من الحكمة فلم يعلمه نبي مرسل ، ولا ملك مقرب . كذلك نهى الرسول ، عن التنازع فى القدر ، حينما خرج على أصحابه وهم يتنازعون فيه . فقال أبهذا أمرتم ؟ أبهذا أرسلت إليكم ؟ عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه .

قال ابن حجر : يؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض فى الغيبة . وأبيح لهم السؤال عن الله وصفاته ، ونهوا عن الكيف^(١) .

فالجانب العقائدى فى الإسلام هو ما ورد فيه قول عمر : اتقوا الرأى فى دينكم ، وإياكم وأصحاب الرأى ، فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا . فالرأى فى الحياة الاعتقادية له آثاره السيئة لأن قوة العقيدة تعتمد على اليقين المطمئن والتسليم المؤمن .

ب- العقل ومجال العالم الطبيعى والاجتماع الإنسانى :

ذلك مجال ، للعقل حرية البحث فيه والجدل معاً ، وهو ما يخص الأمور الطبيعية ، والاجتماع الإنسانى ، والأمور الخاصة بالتشريع ، وهى الأمور التى تدخل فى نطاق العقل ، والقياس ، والتجربة . يقول ابن عبد ربه : لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة وهم أهل الفقه والحديث : فى نفى القياس فى التوحيد وإثباته فى الأحكام إلا «داود بن على الظاهرى» . ويقول عمر لشریح حين بعثه على قضاء الكوفة : وما لم يتبين لك من السنة فاجتهد فيه رأيك . ويفيد فى هذا قول الرسول ﷺ فى حديث تأييد النخل : أنتم أعلم بشئون دنياكم^(٢) .

(١) فتح البارى - باب القضاء والقدر - لابن حجر العسقلانى .

(٢) السنن - باب القياس - لأبى داود بن على الظاهرى .

ج- مشكلات خاصة حصرها القرآن :

وهنا مجال لا يفيد السؤال ولا يجدى حوله الجدل ، وهى قضايا حصرها القرآن حول :

(١) قضية الروح ، قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الروح ؟ قل : الروح من أمرى ربى ﴾ (١) .

(٢) قضايا خمس حصرها القرآن بقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير ﴾ (٢) .

(٣) المتشابه من القرآن مثل فواخ بعض السور : ألم - كهيعص - يسس - ن - ق - ... إلخ . مثل هذه الآيات وهى من المتفق على أنها ، من المتشابه ، والمتشابه : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ (٣) . وما دام هناك أشياء لا يمكن للعقل أن يصل إليها فإننا نشدد على أهمية الوحى ، وبهذا تحل مشكلة الخيار : بين إهمال الدين ، أو إهمال العقل .

وهناك من الباحثين المشهود لهم مثل الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه : « القرآن والفلسفة » يجعل القرآن من أهم عوامل التفلسف فيقول : « فإنه بحث أردت منه بيان أن القرآن كان من أهم العوامل التى دفعت المسلمين إلى التفلسف » (٤) لكن ما معنى التفلسف الذى يقصده الدكتور محمد يوسف موسى ؟

(٣) سورة ، الآية

(١) سورة لقمان ، الآية : ٣٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

(٤) انظر القرآن والفلسفة للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .

إذا كان التفلسف هو إثارة الأسئلة وتوجيهها - أى أسئلة كانت - فالقرآن من عوامل التفلسف ، أما إذا كان معنى التفلسف هو البحث عن الغموض الميتافيزيقى حول مصدر وجود الإنسان أو الوجود ؟ فالقرآن على هذا الحصر ليس مصدرًا للتفلسف .

أما إذا كان معنى التفلسف هو تحصيل المعرفة الحقة لله ، والتدبر فى الكون الطبيعى ، أى عالم الشهادة ، والتسليم بعالم الغيب ، فيكون فى القرآن إجابات حاسمة للإثارة النفسية والعقلية . حقيقة أن القرآن الكريم لم يحتو على أصول الفلسفة بمعناها الاصطلاحي إنما أجاب على أصول الفلسفة ولاسيما الجانب الميتافيزيقى منها ، لأن القرآن بين الحق فى مشكلة الألوهية ، وما يتبعها من مغيبات إلى التدبر فى مجالات الطبيعة ، والبحث ، والنظر فى ملكوت النفس ، وعظمة الطبيعة ، بذلك يكون القرآن سببًا من أسباب النظر العلمى وهو مجال آخر غير المجال الميتافيزيقى .

ويعتبر القرآن قد حدد موقفه من مشكلات عالم ما بعد الطبيعة ، بواسطة الوحي الإلهى ، وليس على المسلم إلا اعتناقها ، ثم يتفرغ لكل ما يجرى فيه البحث ، والنظر ، وتصلح له المناهج العلمية .

وإن عدم توضيح القرآن لكل ما فى الوجود فيه تقدير لوظيفة العقل الإنسانى ، وتأكيد جديد من الوحي للعقل لأن يباشر عبادة التدبر ، ويتابع البحث فى مجالات التجربة الإنسانية وما يقع فى إطار تاريخها . وتصبح مجالات الجدل المحددة فى المنهج القرآن ذات قيمة عقائديه ، واجتماعية ، وترجع قيمتها الاجتماعية فى أنها تدعو الناس إلى الاهتمام بما يقع فى دائرة النشاط الإنسانى ، وألا يتخذوا من عدم فهم آيات القرآن ذريعة إلى عدم الإيمان ، فالربط بين عدم الفهم ، والإنكار ، دحض القرآن نفسه عندما أشار إلى بعض آيات كونية غير مفهومة ، ومع ذلك لا يقوى الإنسان عليها نكرًا كقوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ ، فإن عدم فهم الروح ليس مسوغًا لرفضها ، كذلك يضيف تحديد مجالات الجدل قيمة عقائدية تظهر فى الإحياء

الإعجازى للقرآن على أساس أن هذه المجالات بلغت مع التاريخ حقيقة غير منقوضة حتى فى عصر الحقائق العلمية ، وفى هذا ما يعطى مزيداً من الإيمان بأنه وحى منزل .

وتصبح الوظيفة الاجتماعية ، النهائية ، لمجالات الجدل تعنى : أن الالتزام بها يقلل كثيراً ويضيق مجالات الخلاف بين الجماعة ، وتعطى طابعاً فكرياً له حده الأدنى المقرر الذى تشترك فيه الجماعة على اختلاف حظها من العقل ، والقدرة على التفكير .

فلسفة الإسلاميين :

وفى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وأوائل الثالث الهجرى ، بدأت حركة الترجمة فى الجو الإسلامى ، وعربت علوماً كثيرة ، منها الفلسفة . ومن يوم أن عربت ظلت تطلق على جانب محدد ، وعلى جماعة محددة ، وعلاقتها بالفكر الإسلامى ظلت علاقة مشوبة بحذر ، بمعنى أن الفكر الإسلامى ، الذى ظل محتفظاً بدائرته ، لم يتخذ الفلسفة لقباً عليه ، أو صفة له ، وأصبح الفكر الفلسفى الإسلامى يطلق ، منذ القرن الثالث الهجرى ، على الذين كانوا يدرسون النص الإغريقى مباشرة أو معرباً ، وظل هذا اللون الفكرى ، الذى يمثل تيار الثقافة الوافدة فى الجو الإسلامى ، دلالة على رحابة صدر الإسلام نحو هذا اللون الفكرى .

غير أن دواعى الحذر كانت لا تشكل حاجزاً يحول دون دراستها ، ولما كانت الفلسفة تتميز بطابع التمرد العقلى ، فهى دائماً تتمرد على مبدأ الالتزام ، تتمرد على مبدأ القواعد المقررة . من هنا كان العقل الموجه بالدين لا يأنس إليها لأنها تكثر مجادلته وتثير عليه القلق من كاب جانب ، وأقل ما تثيره عليه هو سؤالها الدائم للعقل لماذا تقبل التوجيه من الدين ؟

وسؤال الفلسفة التى تحتفظ به لنفسها هو لماذا ألزمت بقضايا الفكر الدينى ؟ ذلك التمرد أحدث فى الثقافة الإسلامية حركة عقلية ناهضة ومنظمة درأت بها عنف الوافدة

فتوافقت حركة الترجمة والتعريب مع حركة الكتاب الإسلامى وتأليفه ، واستطاع العقل الإسلامى أن يثبت ذاته ، ويتبين أصالته أمام ما وفد عليه من تراث يونانى ، دون أن ينساب فى روافد الفلسفة وحركة ترجمتها أو تجمد فى بلادة أمامها .

فالفلسفة الإسلامية تميزت عن الفكر الإسلامى بما أحدثته من قضايا جديدة ، وإن كانت ليست بذى بال مثل قضية «التوفيق بين الدين والفلسفة»^(١) ، و«الله والعالم» ، ونظرية «العقول العشرة» والنظريات الاجتماعية فى المدن الفاضلة ، وكانت تسير بانقباض تام بجانب الفكر الإسلامى الفسيح لأنها انعزلت داخل قضايا محددة ، وظلت تعالجها من حيث منهجها ، فى الجو الإسلامى ، وأخفقت ، من حيث موضوعاتها . فنلاحظ ، أن المنطق الصورى يدعى ، فى المدرسة الإسلامية ، أنه عصمة الذهن عن الخطأ فى الفكر ، وإن كان وجد ، من الإسلاميين ، من عارضه وناقضه ورفضه ، بيد أن ذلك لم يكن حائلاً دون دراسته واعتباره عند بعض الفقهاء من شروط الاجتهاد ، غير أن الناقدين للمنطق استخدموا أسلوب المنطق ذاته أى جادلوا مبدأً ذهنياً بمبدأً ذهنى .

هذا ما اشتملت عليه المنظومة الإسلامية من دوائر الثقافة والفكر ، وبالرغم من أن الفلسفة انتسبت إلى الإسلام فإنها ظلت مصطلحاً يعبر عن الفكر الوافد . ومهما ادعى الفكر الإسلامى الالتزام والحيطة فإن شيوع الفلسفة ، والتفكير فيها ، قد جره إلى دراسة مسائل تتنافى مع التزامه ، كمسألة إثبات صفات الله أو نفيها ، وهل هى زائدة على الذات أو هى عينها ، ومدى قدرة العبد وعلاقتها بقدرة الرب ... إلخ .

والنتيجة النهائية ، التى نريد أن نصل إليها من التمايز بين الفكر الإسلامى وفلسفة الإسلاميين هى : عدم الخلط بين ما هو من صميم الفكر الإسلامى ، وبين ما هو من

(١) انظر كتابنا : الإمام الغزالى وعلاقة اليقين بالعقل .

صميم فلسفة الإسلاميين . أما فكرة الأستاذ الشيخ مطفي عبد الرزاق التي دعا إليها في كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة تحت عنوان : « رأى فيما تشمله الفلسفة الإسلامية » بقوله : وعندى أنه إذا كان لعلم الكلام ولعلم التصوف من الصلة بالفلسفة ما يسوغ جعل اللفظ شاملاً لهما فإن علم أصول الفقه المسمى أيضاً علم أصول الأحكام ليس ضعيف الصلة بالفلسفة . ومباحث أصول الفقه تكاد تكون فى جملتها من جنس المباحث التي يتناولها أصول العقائد الذي هو علم الكلام ، بل أنك لترى فى كتب أصول الفقه أبحاثاً يسمونها مبادئ « كلامية » هى من مباحث علم الكلام ، وأن التوسع فى دراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية سينتهى إلى ضمها^(١) .

فهذه الدعوة تحتاج إلى نظر ، فالأوفق ، عندى ، أن يظل علم أصول الفقه داخل إطاره فى الفكر الإسلامى لأنه قواعد عقلية وضعت لغايات دينية ، كذلك علم الكلام الإسلامى ، هو فكر إسلامى ، وليس فلسفة ، لأنه من جانب موجه توجيهاً دينياً ، غاية وموضوعاً ، ومن جانب آخر : أنه لم يطلق عليه أصحابه فلسفة . ولا يستفاد من رأينا فى تقرير التمايز بين الفكر الإسلامى وفلسفة الإسلاميين ، عدم تأثرهما ببعض ، لأن رحلة التفاعل بينهما ساعدت كل منهما على إبراز خصائصه . وحقيقة الرأى أن علم أصول الفقه ، وعلم أصول الدين ، يعتبران - فى نظرنا - تطوراً طبيعياً للرأى فى الإسلام ، وعلى سنة التفاعل الثقافى ، استفادت العقلية الإسلامية من العقلية الوافدة ، أساليب تطوير هذه العلوم مع الاحتفاظ بصفة التمايز بين ما هو من صميم الفلسفة ، وبين ما هو من صميم الدين وفكره .

كذلك يفيدنا التركيز على التمايز بين الفكر الإسلامى وفلسفة الإسلاميين فى إبراز جانبين : جانب يؤكد على عنصر الأصالة فى العقلية الإسلامية ، وأن الإسلام فى حد ذاته دفع العقل إلى نشاطه الفكرى ، وجانب يدفع ما يتوهمه بعض الناس من أن

(١) التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق .

الإسلام دين جامد متزمت ، لا يحب العقل كثيراً ولا تراثه ، حتى أن بعض المستشرقين ، من الرعيل الأول ، ادعى أن تأخر المسلمين يرجع إلى جمود أهل السنة ، ويعدّهم عن العقل والتراث الفلسفى .

لاشك أن هذه دعوى مفتراة على الإسلام لأن الإسلام يعزى العقل ويحتفل به حينما جعل التكليف منوطاً به أى لا مجنون مكلف ، ولا صبي مكلف ، ولا حيوان مكلف ، فالإسلام يعزى العقل ولا سيما عندما حرم كل ما يغيب الرشد العقلى من المسكرات ، فشرعية التكليف الإسلامى منوطة بالعقل ولا تكليف لغير العقل . كذلك إذا نظرنا إلى وسائل الاجتهاد فى الإسلام التى منها المصالح المرسلة والاستحسان .. إلخ وجدناها صيغاً عقلية مستنتجة من النص الإلهى ، من مصادر التشريع ، ووسائل من وسائل الاجتهاد الذى هو عمل عقلى للإنسان المسلم .

الإسلام والعقل :

أما من ناحية موقف الإسلام من التراث العقلى الوافد . من حيث المبدأ ، نلاحظ أن الفلسفة ، والتراث الشرقى ، دخلا معاً ديار الإسلام ، حين غنفوان شباب الدولة الإسلامية ، وبذلت الدولة فى سبيل ترجمتها ونقلها مالا وفيراً ، وكان من الذين قاموا بعبء الترجمة فلاسفة مسلمون وغير مسلمين يقيمون فى ظل دولة الإسلام ، فلو كان الإسلام لا يعزى العقل ، ولا يحترم الثقافات العقلية ، ما حرص الخلفاء على إنشاء قلم الترجمة لينقل التراث اليونانى والسريانى إلى اللسان العربى .

ولا غرو فإن أول فيلسوف فى الإسلام - كان على صلة قوية باللسان الإغريقى ، كما تذكر الروايات التاريخية - كان من حيث النسب عربياً ، ومن حيث الدين فهو مسلم ، ومن أوائل من نشط إلى ترجمة الفلسفة إلى اللسان العربى ، ويعرف فى الدوائر الفلسفية بـ (فيلسوف العرب) هو : الكندى ، وإلى أن مات هذا الفيلسوف وهو على

صلة قوية بعلماء عصره ودينه ولم ترفقوى من معاصريه تسمه بالضلال أو بالكفر
أو بالخروج عن الدين الإسلامى .

ثم لما ترجمت الفلسفة لم يعرض عنها العقل الإسلامى بل أقبل عليها تأليفاً
وترجمة وشرحاً من غير أن يضحى بدينه فى سبيلها . والفلسفة وهى إحدى لغات العقل
دخلت ديار الإسلام من الباب الرسمى يوم أن كان للإسلام دولة قوية ، دخلت باختيار
دولة الإسلام وبمشيئة خليفة المسلمين .ومن هنا يتبين لنا : أن الإسلام رحب بالعقل
لذات العقل ، وبالعقل الوافد وبترائه ، فالإسلام يرمى العقل من حيث هو عقل حين ناط
التكليف به وفتح له باب الاجتهاد^(١) . بل إن الإسلام نفسه دعا العقل إلى تدبره ، وفق
قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً ﴾^(٢) . وهكذا فتح المسلمون عقولهم على التراث الإغريقى والشرقى .

ولقد مرت الفلسفة عندما دخلت ديار الإسلام بثلاث مراحل :

- مرحلة الترجمة .

- مرحلة الدراسة .

- مرحلة التفاعل مع الشد والصراع بين طوائف من المفكرين .

وتقسيمها إلى مراحل لا يعنى استقلال كل مرحلة عن الأخرى ، فالكندى كان
مترجماً ، ودارساً . وإنما نشير بهذا التقسيم ، إلى أن دراسة الفلسفة تتوقف على
ترجمتها . والتفاعل ، والمكافحة ، يتوقفان : على دراستها . فكل مرحلة تعتبر مقدمة
طبيعية للتالية ، ومرحلة التفاعل ولدت ولادة طبيعية ، وإن كان صاحبها شئ من
المشقة الزائدة ، وبطبيعة الحال ، مهما رافقها من عسر فإنها انتهت بمولود يحمل

(١) انظر كتابنا: تاريخ الفلسفة الإسلامية فى المشرق .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

خصائص أصيلة من العقل الإسلامى غير أنه لم يكن سوى الخلقة ، من غير تشويه ،
وذلك يرجع فى نظرنا إلى المدرسة الفلسفية فى الإسلام نفسها لأنها حين قدمت
الفلسفة قدمتها من وجهة نظر ضيقة من حيث تعريفها وموضوعها ومنهجها .

* * *

